نظرة فى منهج القاضى الجرجانى
فى كتابه "الوساطة بين المتنبى وخصومه"

بحث للدكتور / حسن السيد خضر الغزاوى

حمدا لله وصلاة وسلاما على نبيه الكريم ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعـــــــد ..

فلقد ازدهرت العلوم والمعارف الانسانية فى القرن الرابع الهجرى وارتقى الشعر العربى الى أسمى الدرجات على يد أبى تمام والبحترى والمتنبى وأضرابهم ، فانبرى النقاد يتابعون خطوهم وما استحدثوه من معان جديدة ، وصور مبتكرة لم يسبقوا اليها ، وأخذوا يوازنون بين انتاجهم من جانب وانتاجهم وانتاج من سبقهم من الشعراء من جانب آخر فاتسع مجال النقد الأدبى ، وتعددت ميادينه ، وتعمقت بحوثه ، حتى أصبح خصبا يانع الثمار ، معتمدا على الذوق الأدبى السليم ، ومستعينا ببحوث العلوم المتصلة به فى التفسير والتحليل والتوضيح .

وكان من أعلام النقد الذين ظهروا فى هذا القرن (على بن عبد العزيز الجرجانى) . صاحب كتاب الوســـــاطة بين المتنبى وخصومه .

نهج الجرجانى فى النقد :

ألف القاضى الجرجانى كتاب (الوساطة بين المتنبى وخصومه) انصافا للمتنبى من الذين رآهم تعصبوا له أو عليه عن هوى ، وتباعد عن الحق والصواب . والمنهج الذى سار عليه هو (قياس الأشباه والنظائر) (١) .

---

(١) النقد المنهجى عند العرب للدكتور : محمد مندور ص ٢٥٦ – نهضة مصر ١٩٧٢ .

فخصوم الشاعر (المتنبى) قد عابوه بالخطأ مثلا ، فلا يناقش ، ما خطأوه فيه ، وانما يقيسه بأشباهه ونظائره لدى الشعراء الآخرين ، من القدماء والمحدثين . يقول الجرجانى : (ودونك هذه الدواوين الجاهلية والاسلامية ، فانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لعائب القدح فيه ، اما فى لفظه ونظمه ، أو ترتيبه وتقسيمه ، أو معناه أو اعرابه ؟ ولولا أن الجاهلية جدوا بالتقدم ، واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة لوجدت كثيرا من أشعارهم معيبة مسترذلة ، ومردودة منفية ، لكن هذا الظن الجميل والاعتقاد الحسن ستر عليهم ، ونفى الظنة عنهم ، فذهبت الخواطر فى الذب عنهم كل مذهب ، وقامت فى الاحتجاج لهم كل مقام (٢) .

ثم يورد أمثلة كثيرة لهذه الأغلاط ، منها قول امرىء القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب
اثما من الله ولا واغل (٣)

فسكن الفعل (أشرب) من غير موجب للتسكين .

ومنها قول طرفة بن العبد يصف قبره :

قد رفع الفخ فماذا تحذرى
ونقرى ما شئت أن تنقرى (٤)

فحذف النون من الفعل (تحذرى) دون موجب للحذف كما هو واضح .

ويسوق أمثلة أخرى لما عده العلماء من أغاليط الشعراء فى المعانى ، منها قول امرىء القيس :

---

(٢) الوساطة ص ٤ .
(٣) ديوان امرىء القيس ص ١٥٠ والمستحقب : المكتسب للاثم والواغل : الداخل على القوم فى شرابهم .
(٤) شعراء النصرانية ص ٢٩٨ .

واركب فى الروع خيفـــــانة
كسا وجهها شـــــعر منتشر (٥)

فيقول : (وهذا عيب فى الخيل) .

ومنها قول رؤبة العجاج :

كنتم كمن ادخـــل فى جحر يدا
فأخطأ الأفعى ولاقى الأسودا (٦)

فجعل الأفعى دون الأسود فى الأذى والضرر ، بينما هى أشد منه نكاية وأعظم فتكا .

وقول أبى ذؤيب الهذلى يصف الفرس :

قصر الصبوح لها فشرج لحمهـــا
بالنى فهى تشوخ فيها الاصبع (٧)

وهذا عيب فى الفرس . اذ يوصف بصلابة الجسم وقوته لا بكثرة اللحم واكتناز الشحم .

هذه بعض الأمثلة الكثيرة التى أوردها الجرجانى لأغاليط الشعراء فى الألفاظ والمعانى دون أن ينقدها نقدا موضعيا يوضح ما فيها ، ويقارنها

---

(٥) ديوان امرىء القيس ص ١٢ . والخيفان من الجراد : المهازيل ، وفرس خيفانة : تشبه الجرد فى خفتها . قال الأصمعى : واذا غطت الناصية الوجه لم يكن الفرس كريما .

(٦) الأفعى : حية عريضة رقشاء دقيقة العنق ، لا تنفع معها رقية ولا ترياق . والأسود : حية خبيثة تسلخ جلدها كل عام ، وتسـمى أسود سالخ .

(٧) المفضليات ج ٢ ص ٢٢٧ . وقصر الصبوح لها : جعل صبوحها اللبن دون الماء ، وشرج اللحم : خالطة الشحم والنى : الشحم . وتشوخ فيها الاصبع : أى لو ادخل أحدهم اصبعه فى لحمها لدخل لكثرة لحمها وشحمها .

بغيرها ، مكتفيا بذكرها ، ملتمسا بذلك العذر للمتنبى الذى يدافع عنه ، فان كان أخطأ فى التراكيب والمعانى فقد سبقه شعراء جاهليون واسلاميون الى الخطأ فيها .

ويحدد الجرجانى خصوم المتنبى فيقول : (ان خصم هذا الرجل فريقان : أحدهما يعم بالنقص كل محدث ، ولا يرى الشعر الا القديم الجاهلى وما سلك به ذلك المنهج ، وأجرى على تلك الطريقة ، ويزعم أن ساقة الشعراء رؤبة ، وابن هرمة ، وابن ميادة والحكم الخضرى ، فاذا انتهى الى من بعدهم - كبشار وأبى نواس وطبقتهم - سمى شعرهم ملحا وطرفا واستحسن منه البيت استحسان النادرة ، وأجراه مجرى الفكاهة ، فاذا نزلت به الى أبى تمام واضرابه نفض يده ، وأقسم واجتهد أن القوم لم يقرضوا بيتا قط ، ولم يقعوا من الشعر الا بالبعد) (٨) .

ويسرف هؤلاء النقاد فى تعصبهم للقديم ، فقد حكى (عن اسحاق ابن ابراهيم الموصلى أنه قال : أنشدت الأصمعى :

هل الى نظرة اليك سبيل ... فيبل الصدى ويشفى الغليل
ان ما قل منك يكثر عندى ... وكثير ممن تحب القليل (٩)

فقال : والله هذا الديباج الخسروانى لمن تنشدنى ؟ فقلت هما لليلتهما . فقال : لا جرم والله ان أثر التكلف فيهما ظاهر (١٠) .

وهذا الفريق لم يعره الجرجانى اهتماما كبيرا ، وانما صب دفاعه عن المتنبى فى عصره ، ومع أبناء زمانه .

الفريق الثانى : ذلك الذى يسلم بفضل أبى تمام وأمثاله ثم يهاجم المتنبى ويغض من شأنه ، وهذا الفريق جانبه الصواب وحاد عن الطريق المستقيم ، اذ أفسد الهوى أحكامه ، وأتلف الحسد نظراته يقول

---

(٨) الوساطة ص ٤٩ .
(٩) الأغانى جـ ٥ ص ٧١ .
(١٠) الوساطة ص ٥٠ .

الجرجانى : (وانما خصمك الألد ، ومخالفـــك المعاند الذى صمدت لمحاكمته ، وابتدأت بمنازعته ومحاجته ، من استحسن رأيك فى انصاف شاعر ، ثم ألزمك الحيف على غيره ، وساعدك تقديم رجل ، ثم كلفك تأخير مثله ، فهو يسابقك الى مدح أبى تمام والبحترى ، ويسوغ تقريظ ابن المعتز وابن الرومى ، حتى اذا ذكرت أبا الطيب ببعض فضائله ، وأسميته فى عداد من يقصر عن رتبته امتعض امتعاض الموتور ، ونفر نفار المضيم ، فغض طرفه ، وثنى عطفه ، وصعر خده ، وأخـــذته العزة بالاثم (١١) .

وهذا الفريق هو الذى يتصدى له القاضى الجرجانى ، يحاجه ، ويذود دونه عن المتنبى ، اذ لا انصاف لدى من يعجب بشعر المحدثين ثم يغض من شعر المتنبى ، ويرى أننا اذا توخينا العدل وآثرنا الانصاف قسمنا شعره فجعلناه فى الصدر الأول تابعا لأبى تمام وفيما بعده واسطة بينه وبين مسلم (١٢) . فلماذا يتعصب ضده أنصار الشعر المحدث ، مع أن شعره من الشعر الذى يعجبهم ويروقهم ؟.

ويسوق الحجج والبراهين لانصاف صاحبه سيقول : (وأقبل عليك أيها الراوى المتعنت فأقول لك : خبرنى عمن تعظمه من أوائل الشعراء ومن تفتتح به طبقات المحدثين ، هل خلص شعر أحدهم من شـــائبة وصفا من كدر ومعابة ؟ فان ادعيت ذلك وجدت العيان حجيجـــك ، والمشاهدة خصمك .. واستعرضنا الدواوين فأريناك فيها ما يحول بينك وبين دعواك .. فان قلت : قد أعثر بالبيت بعد البيت أنكره ، وأجـــد اللفظ لا أستحسنه ، وليس كل معانيهم عندى مرضية ، ولا جميع مقاصدهم صحيحة مستقيمة . قلنا لك فأبو الطيب واحد من الجملة ، فكيف خص بالظلم من بينها ، ورجل من الجماعة فلم أفرد بالحيف دونها ؟.

فان قلت : كثر زلله ، وقل احسانه ، واتسعت معايبه ، وضاقت محاسنه . قلنا لك : هذا ديوانه حاضرا ، وشعره موجودا ممكنا ، هلم

---

(١١) الوساطة ص ٥٢ ، ٥٣ .
(١١٢) المرجع السابق ص ٥٠ بتصرف .

نستقرئه ، ونتصفحه ، ونقلبه ، ونمتحنه ، ثم لك بكل سيئة عشر حسنات وبكل نقيصة عشر فضائل) (١٣) .

ثم يوازن بين صاحبه وابن الرومى فيقول : (.. وقد نجد كثيرا من أصحابك ينتحل تفضيل ابن الرومى ، ويغلو فى تقديمه ونحن نستقرىء القصيدة من شعره ، وهى تناهز المائة أو تربى أو تضعف فلا تعثر فيها الا بالبيت الذى يروق أو البيتين ثم قد تنسلخ قصائد منه وهى واقفة تحت ظلها ، جارية على رسلها . لا يحصل نها السامع الا على عدد القوافى وانتظار الفراغ ، وأنت لا تجد لأبى الطيب قصيدة تخلو من أبيات تختار ، ومعان تستفاد وألفاظ تروق وتعذب ، وابداع يدل على الفطنة والذكاء ، وتصرف لا يصدر الا عن غزارة واقتدار) (١٤) .

وفى هذا النص الطويل يدافع الجرجانى عن المتنبى دفاعا مبنيا على منهجه الذى اختطه لنفسه (قياس الأشباه والنظائر) .

فهو لا يذكر للمتنبى خصائصه الفنية التى يتميز بها عن الشعراء الآخرين ، وانما يسلم بما فى شعره من عيوب ، ثم يلتمس له العذر ، فيدعونا الى المقاصة بين جيده ورديئه ، ثم الى قياسه بغيره من الشعراء ، ولكل منهم الجيد والردىء ، بل منهم من يغلب رديئه جيده كابن الرومى ، رغم مكانته الأدبية السامية بين الأدباء والنقاد .

تطبيق المنهج :

ما تقدم يعد الاطار العام لمنهج الجرجانى فى النقد (قياس الأشباه والنظائر) ثم يأخذ بعد ذلك فى تطبيق المنهج ، فيورد الجيد من شعر الشاعر ، ثم يعقبه بالردىء ، فيقول عن أبى نواس : (ولو تأملت شعر أبى نواس حق التأمل ، ثم وازنت بين انحطاطه وارتفاعه ، وعددت

---

(١٣) المرجع السابق ص ٥٣ .
(١٤) الوساطة ص ٥٤ .

منفيه ومختاره لعظمت من قدر صاحبنا ما صغرت ، ولأكبرت من شأنه ما استحقرت ، ولعلمت أنك لا ترى لقديم ولا محدث شعرا أعم اختلالا ، وأقبح تفاوتا ، وأبين اضطرابا ، وأكثر سفسفة ، وأشد سقوطا من شعره هذا ، وهو الشيخ المقدم ، والامام المفضل الذى شهد له خلف وأبو عبيدة والأصمعى ، وفسر ديوانه ابن السكيت ، فهل طمست معايبه محاسنه ؟ وهل نقص رديئه جيده : (١٥) .

ثم يورد أمثلة كثيرة للجيد من شعره منها قوله فى المدح (١٦) :

يحميـــــك ما تستسر بفعـــله ضحكات وجه لا يزيبـــك مشرق
حتى اذا أمضى عزيمـــــة رأيه أخذت بسمع عدوه والمنطـــق

وقوله يصف فقاعات الخمر التى تعلو الكأس (١٧) .

قامت تريك وأمر الليل مجتمـع صبحا تولد بين المـــاء والعنب
كأن صغرى وكبرى من فواقعهـا حصباء در على أرض من الذهب
كأن تركا قياما فى جوانبهـــا تواتروا الرمى بالنشاب من كثب

يذكر الجرجانى هذه الأمثلة وغيرها دون أن يعلق عليها ، أو يتناولها بالشرح والتحليل ، ولو فعل لكان أجدى على الأدب والنقد ، ولأرانا صفحات مشرقة مضيئة ، ولكنه اكتفى بهذه العبارة عقب النماذج الجيدة من شعر أبى نواس وهى : (ومن سلك هذا المسلك من شعره فقد صافح السماء وتناول النجوم (١٨) .

---

(١٥) المرجع السابق ص ٥٥ .
(١٦) ديوان أبى نواس ج ٢ ص ١٧٣ .
(١٧) المرجع السابق ج ١ ص ٣٤
(١٨) الوساطة ص ٥٨ .

ثم أخذ يورد أمثلة من شـــــــعره الردىء مثل قوله فى مدح الأمين : (١٩)

فعصـــا نـداه براحتى أعلو بها الافلاس قرعـــا
وعلى ســـــور مانع من جوده ان خفت كسـعا
فلوان رهـــــرارا بنى لصفعته بالكف صفعـــا

وقوله :

ألا يا قمـــــــر الـــدار ويا مســـكة عطـــار
ويا نفحـــــة نســرين ويا وردة أشـــــجار
ويا ظلة أغصـــــان على شـــاطىء أنهـــار
ويا كعبين من عـــــاج ويا طنبور شـــطار (٢٠)

ثم يعلق على هذه النماذج مدافعا عن أبى الطيب المتنبى فيقول : (ولو وجد لأبى الطيب بيت مثله ، وحرف يقاربه لعصب بعاره ، ولانطلقت الألسن بعيبه ، وصدر به ديوانه ، وصحيفة مساويه (٢١) .

ويورد أمثلة للمعيب من شعر صاحبه (المتنبى) مثل قوله (٢٢) :

فقلت بالسهم الذى قلقل الحشـــا قلاقل عيس كلهن قلاقـــــــل
غثـــــاثة عيشى ان تغث كرامتى وليس بغث أن تغث المـــــآكل

وقـــوله (٢٣) :

ولست بدون يرتجى الغيث دونه ولا منتهى الجود الذىخلفهخلف

---

(١٩) ديوان أبى نواس ج ٢ ص ٥٥٨ .
(٢٠) المرجع السابق ج ١ ص ٣٩٥ .
(٢١) الوساطة ص ٦١ .
(٢٢) ديوان أبى الطيب المتنبى ج ٣ ص ٢٩٣ ، ٢٩٥ .
(٢٣) المرجع السابق ج ٣ ص ٣٣ ، ٣٤ .

ولا واحدا فى ذا الورى من جماعة ولا البعض من كل ولكنك الضعف
ولا الضعف حتى يتبع الضعف ضعفه ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

يعترف الجرجانى بما فى شعر المتنبى من عيوب ، ولكنه لا يناقش تلك العيوب بل يتبعها بالروائع الجيدة من شعره ، لتشفع هذه لتلك ، ونراه يكثر من ذلك كثرة ملحوظة ، فاذا كانت النماذج المعيبة تشغل من كتابه خمس عشرة صفحة من ص ٨٢ الى ص ٩٧ فان النماذج الجيدة تشغل سبعا وسبعين صفحة من ص ١٠٠ الى ١٧٧ . ويمهد لذكر الروائع من شعره بقوله (وليس من شرائط النصفة أن تنعى على أبى الطيب بيتا شذ ، وكلمة ندرت وقصيدة لم يسعده فيها طبعه ولفظة قصرت عنها عنايته ، وتنسى محاسنه وقد ملأت الأسماع . وروائعه وقد بهرت ، ولا من العدل أن تؤخره الهفوة المنفردة ، ولا تقدمه الفضائل المجتمعة ، وأن تحطه الزلة العابرة ، ولا تنفعه المناقب الباهرة .

وكيف أسقطته عن طبقات الفحول ، وأخرجته من ديوان المحسنين لهذه الأبيات التى أنكرتها ، ولم تسلم له قصب السبق ونصال النضال ، وتعنون باسمه صحيفة الاختيار (٢٤) .

ثم يورد النماذج الجيدة من شعره منها قوله فى وصف الحمى وأثرها فى من تلم به (٢٥) :

وزائرتى كأن بها حياء فليس تزور الا فى الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت فى عظامى
يضيق الجلد عن نفسى وعنها فتوسعه بأنواع السقام
اذا ما فارقتنى غسلتنى كأنا عاكفان على حرام
كأن الصبح يطردها فتجرى مدامعها بأربعة سجام

---

(٢٤) الوساطة ص ١٠٠ ، ١٠١ .
(٢٥) ديوان المتنبى ج ٤ ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

أراقب وقتها من غير شـــــوق مراقبـــة المشـــوق المســـتهام
ويصدق وعدها والصـــــدق شر اذا القاك فى الكرب العظـــام

صورة غزلية رقيقة ، ولكنها غريبة فى باب الغزل ، اذ الحمى القاتلة الفتاكة تتحول فى خيال الشاعر (المتنبى) الى زائرة عاشقة تتسلل الى عشيقها ليلا حياء من الرقباء والوشاة ، فيلقـــاها بأنفس ما يملك ، ويقدم لها الفراش اللين الوثير ، ولكن دلالها عليه يأبى الا أن تبيت فى أعز مكان لديه ، فى عظامه وأحشائه ، وحين يضيق المخدع بالعاشقين معا تحتال فى توسعته كى يضمهما حتى الصباح ، وحين تبدو تباشيره تقوم بتطهيره وغسله كأنها تزيل عنه أثر اثم الليل بدموعها التى تنهمر مدرارا من الفراق حين يطاردها الصبح من مخدع الحب ، ثم تستبد بها العاطفة المتهالكة فتعاودها حتى عرف المعشوق موعدها فهو يترقبها فى الموعد المحدد ولكن فى ضيق ورهبة وان بدا عليـــه اضطراب العاشق المشوق والصب المستهام

انها صادقة الوعد من صدقها فى الحب وليتها لا تصدق لتجنبه هذه الكروب التى يلقاها كل ليلة .

وبعد ايراد هذه القصيدة وهى طويلة يعلق عليها بقوله : (وهـــذه القصيدة كلها مختارة ، لا يعلم لأحد فى معناها مثلها ، والأبيات التى وصف بها الحمى قد اخترع أكثر معانيها ، وسهل فى ألفاظها فجاءت مطبوعة مصنوعة ، وهذا القسم من الشعر هو المطمع المؤيس) (٢٦) .

ثم يعقد موازنة سريعة بين المتنبى وعبد الصمد بن المعذل فى وصف الحمى فيقول : (وقد أحسن عبد الصمد بن المعذل فى قصيدته الرائية التى وصف بها الحمى . وكأن أبا الطيب قصد تنكب معانيه فلم يلم بشىء منها) .

---

(٢٦) الوساطة ص ١٢١ .

قال عبد الصمد :

وبنت المنيـــة تنتـــابنى هـــدوا وتطرقنى ســـحره
اذا وردت لم يدع وردهـــا عن القلب حجب ولا ســـتره
كأن لها ضرما فى الحشـــا وفى كل عضو لها جمـــره
اذا لم ترح أصـلا فى العشى فأقصى مواعدها بكـــره
لها قدرة فى جســـوم الأنام حباها بها الله ذو القـــدره
تاليت باسم سواها لهـــا كأن ليس لى باسمها خبـــره
فطورا ألقبهـــا ســـخنة وطورا ألقبهـــا فتـــره
أســـائل أهى عين سخنتنى وأمنهم نظرة نظـــره
فأجزع ان قيل لى حمـــرة وأشـــفق ان قيـل لى ضـفزه
وصرت اذا جمعتيوما ظللت كأن على كبدى شـــفره
وتربو الطحال اذا ما شبعت فتعلو الترائب والصـــدره
فأمسى كأنى من معـــدتى لبست الثياب على زكـره (٢٧)
اذا ما رأيت أمرا مطلقـــا له الأكل تخنقنى العبـــره
كأنى فى منزلى مخصـــبا ببلقعة جدبة قفـــره (٢٨)

ولم يوازن الجرجانى بين النصين موازنة موضعية يبين فيهـــا الخصائص الفنية لدى كل من الشاعرين فى قصيدته ، وبم تميز أحدهما عن الآخر ، وما بينهما من اتفاق واختلاف ، ولكنه يعلق تعليقا خاطفا فيقول : (وأنت اذا قست أبيات أبى الطيب بها على قصرها ، وقابلت اللفظ باللفظ والمعنى بالمعنى وكنت من أهل البصر ، وكان لك حظ فى النقد تبينت الفاضل من المفضول) (٢٩) .

---

(٢٧) زكرة : زق يجعل فيه شراب أو خل .
(٢٨) ديوان المعانى ج ٢ ص ١٦٧ .
(٢٩) الوساطة ص ١٢٢ .

ما قدمته نموذج من تطبيق منهج الجرجانى فى النقد (قيـــاس الأشباه والنظائر) يذكر محاسن الشاعر ومساوئه ، دون تحليل أو تفسير لجوانب الاجادة أو الاساءة غالبا . ولكن برزت له نظرات نقدية فى بعض فصول الكتاب تدل على فهم عميق للشعر العربى وأثره فى النفس سنعرض لها فى الصفحات التالية .

الجرجانى والشعر :

ألف القاضى الجرجانى كتاب (الوساطة بين المتنبى وخصـــومه) لينصف المتنبى من أعدائه الذين تألبوا عليه ، فكان مجالا خصبا وميدانا فسيحا ، عرض فيه لكثير من النظرات النقدية الأصيلة ، فتناول الشـــعر فى جوانب كثيرة منها :

أولا : انتاج الشعر :

ذكر الجرجانى رأيه فى الصفات التى يجب أن تتوافر لدى الشاعر حتى يتمكن من انتاج الشعر فيقول : (أنا أقول ـ أيدك الله ـ ان الشعر علم من علوم العرب ، يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الاحسان) (٣٠) .

واذا كان الجرجانى قد جعل الشعر علما من علوم العرب ، فلأن التفرقة بين العلم والفن لم تكن معروفة فى عهده بل كان معناهما واحـــدا .

ونظرة القاضى هذه صائبة الى حد بعيد فى انتاج الشعر ، اذ الشاعر لابد له من موهبة تولد معه ، ليس فى مقدور واحد اكتسابها ، والشعراء يختلفون فى هذه الهبة أو الطبع ، فمنهم فياض الطبع ، ومنهم ذو موهبة محدودة .

---

(٣٠) الوساطة ص ١٥ .

وأما الذكاء فبه يلمح الشاعر ما لا يلمحه غيره من الناس ، ويدرك الأسرار الدفينة فى نفوس البشر والصلات والمفارقات ما لا يدركه سواه ، وبذلك يتميز عن غيره ، ويتفرد بألوان من الاحساسات والمشاعر فيعبر عن تجربته أصدق تعبير ويصورها أجمل تصوير .

وأما الرواية فهى أن يعيش الشاعر مع النصوص الأدبية لصقل طبعه وتنمية ذكائه واتساع معارفه ، ولذلك كانت (حاجة المحدث الى الرواية أمس ، واحتياجه الى كثرة الحفظ أفقر ، لأن المطبوع الذكى لا يمكنه تناول ألفاظ العرب الا رواية ، ولا طريق الا السمع ، وملاك الرواية الحفظ وقد كانت العرب تروى وتحفظ ويعرف بعضها برواية شعر بعض) (٣١) فهو يرى أن الرواية بمثابة التلمذة ، فمن الشعراء من تتلمذ لغيره بأن صار راوية له فبرز فى الشعر سائرا على نهج أستاذه ، حتى لتتكون أحيانا مدارس بعينها ، كتلك التى قامت على أوس بن حجر وزهير والحطيئة .

وقد أدرك النقاد فيما بعد ما لمدارسة النصوص الأدبية والتمرس بها من أثر كبير فى صقل موهبة الشاعر حتى عدها ابن خلدون العنصر الأساسى لتكوين ملكة البلاغة لدى الشاعر ، اذ يقول (وهذه الملكة ـ البلاغة ـ انما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرر السمع والتفطن لخواص تركيبه) (٣٢) .

وبالدربة يظهر الطبع الكامن ، ويبلغ أشده وبدونها يذبل الطبع ويذوى كبذرة أهمل أمرها فلم تنم ولم تثمر .

وبقدر توفر حظوظ الشاعر من الأمور السابقة تكون مرتبته من الاحسان والجودة ، يقول الجرجانى : (وأنت تعلم أن العرب مشتركة

---

(٣٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥١٦ .
(٣١) المرجع السابق .

فى اللغة واللسان ، وانها سواء فى المنطق والعبارة ، وانما تفضل القبيلة أختها بشىء من الفصاحة ثم تجد الرجل منها شاعرا مفلقا وابن عمه وجار جنابه ولصيق طنبه بكيئا مفحما ، ونجد الشاعر أشعر من الشاعر ، والخطيب أبلغ من الخطيب ، فهل ذلك الا من جهة الطبع والذكاء وحدة القريحة والفطنة ، وهى أمور عامة فى جنس البشر ، لا تخصيص لها بالأعصار ، ولا يتصف بها دهر دون دهر) (٣٣) .

ثانيا : تباين الشعر :

يختلف الشعر رقة وصلابة من شاعر الى آخر حسب طبيعته التى خلق عليها ، وبيئته التى نشأ فيها ، والغرض الشعرى الذى تناوله فهذه أمور ثلاثة تؤثر فى الانتاج الشعرى .

أولا : اختلاف الطبائع وتركيب الخلق :

ان سلاسة اللفظ تتبع سلامة الطبع ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة يقول الجرجانى : (وأنت تجد ذلك ظاهرا فى أهل عصرك وأبناء زمانك، وترى الجافى الجلف منهم كز الألفاظ معقد الكلام وعر الخطاب ، حتى انك ربما وجدت ألفاظه فى صوته ونغمته وفى جرسه ولهجته)(٣٤).

ولو طبقنا هذه النظرية لوجدناها صحيحة صائبة ، اذ نجد تعقيد المعانى أثرا لالتواء بعض الوجوه ، وسلاسة الأسلوب نتيجة بشاشة بعض الوجوه وصفاء النفوس ، يقول الدكتور زكى مبارك : (وأنا أشهد بصحة هذه النظرية حين أوازن بين مقامات الحريرى ومقامات بديع الزمان ، او شعر أبى تمام وشعر أبى نواس) (٣٥) .

---

(٣٣) الوساطة ص ١٦ .
(٣٤) المرجع السابق ص ١٨ .
(٣٥) النثر الفنى ج ١ ص ٢٢ .

ثانيا : البيئـــة :

الشاعر ابن بيئته فما يجرى فيها من أحداث وما تصطبغ به من تخلف وتحضر يستقر فى أعماقه ، وينعكس على أسلوبه وتصويره غالبا ، يقول الجرجانى : (ومن شان البداوة ان تحدث بعض ذلك (٣٦) ، ولأجله قال النبى صلى الله عليه وسلم (من بداجفا) ولذلك نجد شعر عدى وهو جاهلى اسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما آهلان للازمة عدى الحاضرة وايطانه الريف وبعده عن جـــلافة البـــدو وجفـــاء الأعراب) (٣٧) .

ثالثا : الغرض الشعرى :

لكل غرض شعرى أسلوب يلائمه والفاظ تناسبه ، فليس الغـــزل كالمديح ولا الفخر كالوصف ولا العتاب كالوعيد بل ينبغى ان (.. تقسم الألفاظ على رتب المعانى ، فتلطف اذا تغزلت ، وتفخم اذا فخرت ، وتتصرف للمديح تصرف مواقعه ، فان المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظرف ، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام ، فلكل واحد من الأمرين نهج هو أملك به ، وطريق لا يشـاركه الآخر فيه) (٣٨) .

ثالثا : المثل الأعلى للشعر :

ذكر الجرجانى ما رآه مثلا أعلى للشعر ، وبين أن ذلك يتحقق بشروط يجب توافرها فى المعنى واخرى فى الأسلوب .

---

(٣٦) مرجع اسم الاشارة قوله سابقا (كز الألفاظ معتد الكلام وعر الخطاب) .

(٣٧) الوساطة ص ١٨ .

(٣٨) الوساطة ص ٢٤ .

المعنى :

أما من حيث المعنى فينبغى ألا يكون مبتذلا ، وأن يكون صحيحا شريفا مصيبا فى الوصف مقاربا فى التشبيه انسانيا يجرى على ألسنة الناس مثلا وحكمة (٣٩) ولم يوضح الجرجانى ماذا يريد بالابتذال ، ولا ما يقصده بالشرف وربما كان مراده منهما البعد عن المعانى الدارجة الشائعة الاستعمال ، يتضح ذلك من الأمثلة التى أوردها فى كتابه ومنها على سبيل المثال قول البحترى فى النسيب :

أجدك ما ينفك يسرى لزينبا ... خيال اذا آب الظلام تأوبا
سرى من أعالى الشام يجلبه الكرى ... هبوب نسيم الروض تجلبه الصبا
وما زارنى الا ولهت صبابة ... اليه والا قلت أهلا ومرحبا
وليلتنا بالجزع بات مساعفا ... يرينى أناة الخطو ناعمة الصبا
أضرت بضوء البدر والبدر طالع ... وقامت مقام البدر لما تغيبا
ولو كان حقا ما أتته لأطفأت ... غليلا والا فتكت أسيرا معذبا
علمتك ان منيت منيت موعدا ... جهاما وان أبرقت أبرقت خلبا
فوا أسفى حتام أسأل مانعا ... وآمن خوانا وأعتب مذنبا
سأثنى فؤادى عنك واتبع الهوى ... اليك ان استعفى فؤادى أو أبى (٤٠)

وبنظرة متأنية الى هذه الأبيات التى عدها الجرجانى من السهل الممتنع ، لا نرى معانيها مما يجرى على ألسنة العامة ، فالشاعر عندما أراد أن يصف محبوبته بالحسن لم يسلك الطريق المألوف ـ التشبيه أو الاستعارة ـ ولكنه أحس أن حبيبته أجمل من البدر . فاذا نظر اليها والبدر يتلألأ فى جو السماء يرى وجهها أبهى منه طلعة وأجمل ضياء ، فأضاء وجهها ظلمات الليل بعد أن غرب بدر السماء .

---

(٣٩) المرجع السابق ص ٣٣ بتصرف .
(٤٠) ديوان البحترى ج ١ ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

لكننا نجد قوله (أهلا ومرحبا) من المعانى الدارجة التى تدور بين السوقة والدهماء ، غير أن للشاعر عذرا فى ذلك ، اذ صور لنا ما وقع عندما رأى طيف محبوبته .

يعلق الجرجانى على هذه الأبيات فيقول : (.. أنظر هل تجد معنى مبتذلا ولفظا مشتهرا وهل ترى صنعة وابداعا أو تدقيقا أو اغرابا ؟ ثم تأمل كيف تجد نفسك عند انشاده ، وتفقد ما يتداخلك من الارتياح ويستخفك من الطرب اذا سمعته ، وتذكر صبوة ان كانت لك تراها ممثلة لضميرك ومصورة تلقاء ناظرك) (٤١) .

وقد اشتمل هذا التعليق على مقاييس الجودة الشعرية لدى الجرجانى ، وهى الخلو من الابتذال ، والبعد عن الصنعة والاغراب ، والقرب فى الوصف والملاءمة فى التشبيه ، ثم التأثر فى نفس السامع والقارىء وهذا لا يحدث الا بما اشتمل عليه الشعر من عناصر انسانية صادقة تجعلنا نشارك قائله فى أحاسيسه ومشاعره ونعود الى نفوسنا فنجد لشعره صدى فيها ، وبذلك يبقى هذا الشعر على مر الدهور وكر السنين . وهذه نظرة نقدية صائبة وفق فيها الجرجانى الى حد بعيد .

التجديد والابتكار فى المعانى الشعرية :

التجديد والابتكار من أهم مظاهر العبقرية لدى الشاعر ، ومن البراهين الساطعة على براعته فى ادراك أعماق التجارب التى مر بها وسبر غورها والنتائج التى انتهى اليها ، ومن علامات قدرته على الخلق الفنى المقنع للعقول والمثير للعواطف والمشاعر ، بل من الأدلة الواضحة على ثقافته الواسعة فى مجال الأفكار والمعانى .

والتجديد والابتكار من أسمى ما يقدمه العباقرة للبشرية ومن أعظم ما يهدى اليها فى أى جانب من جوانب الحياة ، لأنه نوع من السبق المعين على التقدم والنهوض .

---

(٤١) الوساطة ص ٢٧ .

يدرك الجرجانى هذه الحقيقة فيعجب من النقاد الذين ينعـــون على أبى الطيب المتنبى بعض الأبيات التى شذت والقصائد التى لم يسعده فيها طبعه ، وينسون محاسنه وقد ملأت الأسماع وشغلت الأفكار فيقول : (وكيف أسقطته عن طبقات الفحول وأخرجته من ديوان المحسنين لهذه الأبيات التى أنكرتها ولم تسلم له قصب السبق ونصال النضال ، وتعنون باسمه صحيفة الاختيار) (٤٢) .

ثم يورد أمثلة لمبتكرات المتنبى منهـــا قوله فى مدح سيف الدولة (٤٣) :

هو الجد حتى تفضل العين أختها ... وحتى يصير اليوم لليـــوم سيدا
وما قتل الأحرار كالعفو عنهـــم ... ومن لك بالحر الذى يحفظ اليدا
اذا أنت أكرمت الكريم ملكتـــه ... وان أنت أكرمت اللئيم تمـــردا

وقوله يمدح على بن منصور الحاجب (٤٤) .

ملك سنان قناته وبنـــــاته ... يتباريان دما وعرفا ساكبـــا
ان تلقه لا تلق الا قســـــطلا ... أو جحفلا أو طاعنا أو ضـــاربا
واذا نظرت الى الجبـــال رأيتها ... فوق السهول عواســـلا وقواضبا
وعجـــاجة ترك الحديد سوادها ... زنجا تبســـم أو قذالا شائبـــا
كالبحـــر يقذف للقريب جواهرا ... جودا ويبعث للبعيد سحائبـــا

ويعلق الجرجانى على هذه الأمثلة الكثيرة التى أوردها لمبتكرات المتنبى بقوله : (وأمثال ذلك ان طلبته هواك الى موضعه ، واذا التمسته دلك على نفسه) (٤٥) .

---

(٤٢) المرجع السابق ص ١٠١ .
(٤٣) ديوان المتنبى ج ٢ ص ٩ ، ١١ .
(٤٤) ديوان المتنبى ج ١ ص ٢٥٣ وما بعدها .
(٤٥) الوساطة ص ١٥٩ .

وقد أغرى بذلك الباحثين بمواصلة الدراسة واستقصاء المعـــانى الجديدة فى ديوان المتنبى ، فصاحب تنبيه الأديب الغريب يعجب بقول المتنبى :

أتراها لكثرة العشـــاق تحسب الدمع خلقة فى المآقى (٤٦)

ويقول : (هذا المطلع ما سمع بمثله ومعنى تفرده بابداعه ، يقول لصاحبه أتظنها لكثرة ما ترى الدمع فى آماق عشاقها تتوسم أنه خلقة فيها) (٤٧) .

ويرى ابن الأثير أن المتنبى (اختص بالابداع فى وصف مواضع القتال ، وانه اذا خاض فى وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها وان طريقه فى ذلك يضل بسالكه ويقوم بعذر تاركه ، ولذلك فانه صار أبا عذرته وفارس حلبته) (٤٨) .

الغلو والمبالغة :

اختلف النقاد منذ القدم فى الوسيلة التى يؤدى بها المعنى ، فمنهم من يميل الى الغلو والمبالغة فى التعبير عنه ، ومنهم من يميل الى التوسط والاعتدال فى ابرازه وتوضيحه ، فالنابغة الذبيانى ينقـــد حسان بن ثابت لأنه لم يبالغ فى الفخر بنفسه وبقومه حين قال :

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

قائلا له : (أنت شاعر ولكنك أقللت جفانك وأسيافك) وفى رواية : (ما صنعت شيئا قللت أمركم فقلت جفنات وأسياف) (٤٩) . يقصد أنه استمل جمع القلة فى مقام يتطلب جمع الكثرة (جفان وسيوف)

---

(٤٦) ديوان المتنبى ج ١ ص ١٨٢ .
(٤٧) تنبيه الأديب الغريب ص ٥٠ .
(٤٨) الصبح المنبى ج ١ ص ٢٥٠ .
(٤٩) الموشح ص ٨٢ ، ٨٣ .

وهذا عمر بن الخطاب يقدم زهيرا على غيره من الشعراء معللا ذلك بقوله : (انه كان لا يعاظل بين القول ، ولا يتتبع حوشى الكلام ، ولا يمدح الرجل الا با فيه) (٥٠) .

أما قدامة بن جعفر فانه يحبذ الغلو والمبالغة ويجعله مذهب أهل البصر بالفن فيقول (ان الغلو عندى أجود المذهبين ، وهو ما ذهب اليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما) (٥١) .

أما القاضى الجرجانى فيرى أن للشاعر أن يبالغ ما لم يجره ذلك الى الاحالة والخروج عن حدود الامكان ، فيقول : (فأما الافراط فمذهب عام فى المحدثين ، وموجود كثيرا فى الأوائل ، والناس فيه مختلفون ، فمستحسن قابل ، ومستقبح راد ، وله رسوم متى وقف الشاعر عندها ، ولم يتجاوز الوصف حدها جمع بين القصد والاستيفاء وسلم من النقص والاعتداء ، فاذا تجاوزها اتسعت له الغاية وأدته الحال الى الاحالة وانما الاحالة نتيجة الافراط ، وشعبة من الاغراق ، والباب واحد ولكن له درج ومراتب) (٥٢) .

ويبدو مما سبق أن النقاد فى جملتهم يميلون الى الغلو والمبالغة ، ولا يعيبون من بالغ من الشعراء ، اذا لم تصل به المبالغة الى درجة الاحالة والا سقط شعره لأنه أصبح (من المحال الفاسد ، وهو عند أهل العلم معيب مردود ومنفى مرذول) (٥٣) .

ويذكر الجرجانى كثيرا من أبيات المتنبى التى بالغ فيها ، وأغرق حتى وصل الى الحد المعيب المرذول مثل قوله (٥٤) :

---

(٥٠) الشعر والشعراء ج ١ ص ٤٤ .
(٥١) نقد الشعر ص ٥٥ .
(٥٢) الوساطة ص ٤٢٠ .
(٥٣) المرجع السابق ص ٤٢٨ .
(٥٤) ديوان المتنبى ج ٣ ص ٢٨٧ .

وضاقت الأرض حتى كان هاربهم اذا رأى غير شيء ظنه رجلا

وقوله (٥٥) :

ولو قلم القيت فى شق رأسه من السقم ما غيرت من خط كاتب

ونحن معه فى أن المتنبى تجاوز حدود الامكان الى الاحـــالة الفاسدة فى البيت الثانى ، ولكننا نخالفه فى البيت الأول .

فمناط العيب فيه أن جعل المتنبى المعدوم محسوسا مرئيـــا ، وعلى الرغم من أن العقل لا يسوغ ذلك ويجعله أمرا مستحيلا ، فان للنفس مقاييس لا تخضع خضوعا مطلقا لمنطق العقل والادراك .

فالشاعر هنا يتحدث عن هارب خوفا ، ضاقت به سبل النجاة ، فسار يتحسس طريقه على خوف وارتياب ، تلاحقه ظنونه أنى سار ، وحيثما ارتحل ، ويتصور الهلاك فى كل خطوة يخطوها : وبذلك تكاد قواه العقلية تكون متخيلة عنه ، وحالته النفسية مضطربة الى حد كبير اذ جانبها الصواب وزايلها الرشد ، حتى سولت له ظنـــونه كل شيء وعكست لعينيه صورة وهمية لمطارديه ومتتبعى خطاه من أعدائه ، كما لو كانوا خلفه يلاحقونه ، أو أمامه يفاجئونه ، فدفعه ذلك الى الاستخفاء أو الاسراع لينجو من الهلاك ، ولكن الدنيا ضاقت فى وجهه واضطربت به السبل .

وهكذا تعكس ظنونه لعينيه ما يتصوره من أوهام ، لا ما يجرى فى الواقع من حقائق وأحداث ، فالظاهرة ممكنة الحدوث من الناحيـــة النفسية .

---

(٥٥) المرجع السابق ج ١ ص ٢٧٦ .

ولنا فى القرآن الكريم المثل الأعلى الذى يحتمل أن المتنبى استقى منه فكرته فيقول الله تعالى : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا) (٥٦) .

ألم يصور الوهم لأولئك الظماى السراب وهو عدم بالماء حتى اذا ساروا نحوه لم يجدوه شيئا وبذلك سولت لهم نفوسهم اللاهثة ان يسيروا وراء لا شىء ظانين انهم سيجدون طلبتهم وما يريدون ؟

الشعر والدين :

يرى الجرجانى أن للشاعر الحرية الواسعة فى التعبير عما يدور بخلده ، أو يجول بخاطره ، ولو كان مجافيا للأخلاق بعيدا عن روح الدين والاعتقاد الصحيح . وليس ذلك مدعاة للازراء بالشعر ، أو الانتقاص من مكانة الشاعر ومنزلته الفنية ، فيعجب ممن ينتقص المتنبى ويغض من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة ، وفساد الديانة كقوله (٥٧) :

يترشفن من فمى رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

مع أنهم احتملوا اسراف أبى نواس - وهو من المعاصرين للمتنبى - فى مثل قوله فى الاقبال على الشهوات والشك فى الآخرة (٥٨) :

فدع الملام فقد أطعت غوايتى ونبذت موعظتى وراء جدارى
ورأيت ايثار اللذاذة والهوى وتمتعا من طيب هذى الدار
أحرى وأحزم من تنظر آجل ظنى به رجم من الأخبار
ما جاءنا أحد يخبر أنه فى جنة مذ مات أو فى النار

---

(٥٦) سورة النور آية ٣٩ .
(٥٧) ديوان المتنبى جـ ١ ص ٤٠ .
(٥٨) الموشح للموزبانى ص ٤٢٩ .

ويعلق على هذه الأبيات وأمثالها بقوله : (فلو كانت الديانة عارا على الشعر ، وكان سوء الاعتقاد سببا فى تأخر الشاعر لوجب أن يمحى اسم أبى نواس من الدواوين ، ويحذف ذكره اذا عدت الطبقات ، ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ، ومن تشهد الأمة عليه بالكفر ، ولوجب أن يكوب كعب بن زهير وابن الزبو وأضرابهما من تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعاب اصحابه بكما خرسا وبكاء مفحمين ، ولكن الأمرين متباينان ، والدين بمعزل عن الشعر) (٥٩) .

وهذا منطق غريب ، واتجاه جرىء من قاضى القضاة على عهده ، يدلان على نزعته الفنية وروحه النقدية السمحة ، اذ يبيح للشـــــاعر أن ينطلق الى غايته ، يصور ما يجول بخاطره ، ويعبر عما يدور بخلده دون قيود تكبله وتحول دون ما يريد الافصاح عنه .

الأســـلوب :

للأسلوب الشعرى أثر كبير فى أداء المعنى ، اذ هو القالب الذى تصب فيه المعانى فاذا كان نفيا شفافا جاء المعنى فى صورة جميلة ، تهفو اليها القلوب وتقبل عليها الأسماع .

وقد أشار الجاحظ الى أهمية الأسلوب حين استمع الى أبى عمرو الشيبانى وقد أعجب ببيتين لمعناهما فقط دون أسلوبها وهما :

لا تحسبن الموت موت البـــــلى انما الموت ســـؤال الرجـــال
كلاهمـــــا مـــوت ولـــكن ذا أفظع من ذاك لذل الســـــؤال

فنعى عليه اعجابه بقوله : (ذهب الشيخ الى استحسان المعنى ، والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى .. وانما الشأن فى اقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفى صحـة

---

(٥٩) الوساطة ص ٦٤ .

الطبع وجودة السبك ، فانما الشعر صياغة ، وضرب من النسج وجنس من التصوير) (٦٠) .

وتحدث الجرجانى عن الأسلوب فى مواضع كثيرة من كتاب الوساطة مبينا أهميته فقال : (واذا أردت أن تعرف موقع اللفظ الرشيق من القلب وعظم غنائه فى تحسين الشعر فتصفح شعر جرير وذى الرمة فى القدماء ، والبحترى فى المتأخرين وتتبع نسب متيمى العرب ومتغزلى أهل الحجاز كعمرو وكثير ونصيب وأضرابهم ... ثم انظروا حكم وأنصف ودعنى من قولك « هل زاد على كذا » وهل « قال الا ما قاله فلان » فان روعة اللفظ تسبق بك الى الحكم وانما تفضى الى المعنى عند التفتيش والكشف) (٦١) .

فجمال الأسلوب هو أول ما يأسرك فى الشعر ، ويملك عليك أقطار نفسك ، أما المعنى فانه يحدث أثره فيك بعد أن تقف على النص الشعرى مستكشفا أخباره مستجليا أسراره .

ويفضل الجرجانى الأسلوب السهل الرشيق بحيث يسمو عن الأساليب السوقية ولا يرتفع الى الأساليب الحوشية البدوية فيقول : (ومتى سمعتنى أختار للمحدث هذا الاختيار ، وأبعثه على الطبع ، وأحسن له التسهيل ، فلا تظنن أنى أريد بالسمح السهل الضعيف الركيك ، ولا باللطيف الرشيق الخنث المؤنث ، بل أريد النمط الأوسط ما ارتفع عن الساقط السوقى وانحط عن البدوى الوحشى) (٦٢) .

ويؤثر القاضى الجرجانى الأسلوب الطبيعى الذى يخرج عفو الخاط دون تكلف أو تعمل فيقول : (وملاك الأمر فى هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض التعمل والاسترسال للطبع) (٦٣) .

---

(٦٠) الحيوان ج ٣ ص ١٣١ .
(٦١) الوساطة ص ٢٥ .
(٦٢) المرجع السابق ص ٢٤ .
(٦٣ ، ٦٤) الوساطة ص ٢٥ .

ثم يحدد الطبع الذى يريده فهو المصقول المهذب برواية الشعر وحفظه ومعرفة جيده من رديئه فيقول : (ولست أعنى بهذا كل طبع ، بل المهذب الذى صقله الأدب وشحذته الرواية ، وجعلته الفطنة ، وألهم الفصل بين الردىء والجيد ، وتصور أمثلة الحسن والقبح) (٦٤) .

مواقع الكلام عند الجرجانى :

يعجب الجرجانى بالشعر الرائق الجميل الذى ينعش النفوس ويمتع الأرواح وان لم يستكمل شرائط الجودة وأوصاف الكمال فيقول : (وأنت قد ترى الصورة تستكمل شرائط الحسن وتستوفى أوصاف الكمال، وتقف من التمام بكل طريق ، ثم تجد أخرى دونها فى انتظام المحاسن والتئام الخلقة وتناصف الأحزان وتقابل الأقسام ، وهى أحظى بالحلاوة وأدنى الى القبول وأعلق بالنفس وأسرع ممازجة للقلب ، ثم لا تعلم - وان قاسيت واعتبرت ونظرت وفكرت - لهذه المزية سببا ولما خصت به مقتضيا . ولو قيل كيف صارت هذه الصورة وهى مقصورة عن الأولى فى الاحكام والصنعة وفى الترتيب والصيغة ، وفيما يجمع أوصاف الكمال ، وينتظم أسباب الاختيار أحلى وأرشق وأحظى وأوقع ؟ لأقمت السائل مقام المتعنت المتجانف ورددته رد المستبهم الجاهل ، ولكن أقصى ما فى وسعك ، وغاية ما عندك أن تقول : موقعه فى القلب ألطف وهى بالطبع أليق) (٦٥) .

يذكر الجرجانى ذلك ولا يتعب نفسه أو يجهد ذهنه فى كشف الأسرار وبيان الأسباب التى جعلت النفس تهتز لهذا الشعر وتقبل عليه ، وتنكر ذاك وتصد عنه .

وشتان ما بينه وبين تلميذه الشيخ عبد القاهر الجرجانى الذى يرى أن هذا المسلك قصور من الناقد وأنه لابد لكل كلام تجده حسنا من أن يكون لهذا الحسن مصدر معلوم وعلة معقولة ، وأن يكون هناك سبيل للتعبير عنه ، فلا تقبل دعوى من غير برهان ، ولا حكم بلا دليل .

---

(٦٥) المرجع السابق ص ٤١٢ .

ويؤكد عبد القاهر أنه من الآفة الزعم بانه لا سبيل الى معرفة العلة فيما به كان الكلام جميلا ويرى ذلك توانيا وكسلا من الناقد وأن عليه أن يبحث عن السبب حتى يهتدى اليه .

ورغم أن عبد القاهر يعلم أن الناقد أحيانا لا يستطيع أن يصل الى معرفة سبب الجمال ، فانه لا يرى ذلك سبيلا الى اليأس من الوصول اليه ، ويدعو الى أن يتخذ المرء ما يعرف وسيلة الى ما لا يعرف ، وذلك أفضل من أن يسد باب المعرفة على نفسه ويمنعها من الفهم والتفهم ويعودها الكسل والهوينى (٦٦) .

ولا ريب أن عبد القاهر الجرجانى بذلك قد انتقل بالنقد الأدبى خطوة كبيرة الى الأمام لمحاولة معرفة أسباب الجمال فى النصوص الشعرية والوقوف على أسرارها .

مقاييس السرقات الأدبية :

لقد أولى النقاد القدامى وعلى رأسهم القاضى الجرجانى مبحث السرقات الأدبية عناية كبيرة فى مجال الأسس والقواعد التى يستند اليها فى الحكم على النص الشعرى فرأوا أن المعانى قسمان : عامة وخاصة .. أما العامة فهى تلك المعانى الفطرية التى لا يصح نسبتها الى فرد دون آخر لأنها من البديهيات التى لا يصح قصرها على جيل من الأجيال أو طبقة من الطبقات ، وهذه لا مجال فيها لدعوى السرقة ، بل هى كلأ مباح يعبر عنها كل شاعر بما أوتى من براعة التصوير وجمال التعبير .

ويأخذ حكم هذه المعانى العامة ، تلك المعانى التى ابتكرها السابقون من الشعراء ثم شاعت بعد ذلك على ألسنة الشعراء فأصبحت بمنزلتها . يقول الجرجانى ان المعنى (.. اما مشترك عام الشركة

---

(٦٦) عبد القاهر الجرجانى للدكتور أحمد أحمد بدوى بتصرف من ص ٨٩ الى ص ٩٣ .

لا ينفرد أحد بسهم لا يساهم عليه ، ولا يختص بقسم لا ينازع فيه ، فان حسن الشمس والقمر ومضاء السيف وبلادة الحمار وجود الغيث وحيرة المخبول ونحو وذلك مقرر فى البداية ، وهو مركب فى النفس تركيب الخلقة . وصنف سبق المتقدم اليه فغاز به ، ثم تدوول بعده فكثر واستعمل فصار كالأول فى الجلاء والاستشهاد والاستفاضة على السنة الشعراء ، فحمى نفسه عن السرق ، وأزال عن صاحبه مذمة الأخـــذ ، كما يشاهد ذلك فى تمثيل الطلل بالكتاب والبرد ، والفتاة بالغزال فى جيدها وعينيها ، والمهاة فى حسنها وصفائها) (٦٧) .

أما المعانى الخاصة فهى تلك المعانى التى ارتبطت بمقام معين ارتباطا لا يتأتى معه فصلها عن مقامها ، لشدة ملابستها له وارتباطها به لأنها نتيجة تجربة ذاتية عاناها الأديب وحده ، وعاش فى أجوائها ثم عبر عنها تعبيرا يكشف عن تلك التجربة الخاصة ، فهى وحدها محـــل السرقة ، وموضع الأخذ والانتفاع ، يقول ابن الأثير : (وانما تطلق السرقة فى معنى مخصوص لقول أبى تمام :

لا تنكـــــروا ضربى له من دونه مثلا شرودا فى الندى والبـــأس
فالله قد ضرب الأقل لنـــــوره مثلا من المشكاة والنبـــــــراس

فان هذا معنى مخصوص ابتدعه أبو تمام (٦٨) .

ولا يعد الشاعر سارقا اذا أخذ معنى من غيره فزاد فيه زيادة حسنة أو اختصره ان كان مطولا ، يقول الجرجانى : (ومتى سمعت قول أبى دهبل الجمحى :

وكيف أنساك : ؟ لا أيديك واحدة عندى ولا بالذى أوليت من قدم

---

(٦٧) الوساطة ص ١٨٥ .
(٦٨) المثل السائر ص ٣١٢ .

علمت أنه من قول النابغة (٦٩) .

أبى غفلتى أنى اذا ما ذكـــرته تحرك داء فى فؤادى داخـــل
وأن تلادى ان نظـــرت وشكتى ومهرى وما ضمت لدى الأنامل
حباؤك والعيس العتاق كأنهـــا هجان المهاتردى (٧٠) عليها الرحائل

فاذا انصفت أبا دهيل عرفت فضله ، وشهدت له بالاحسان لأنه جمع هذا الكلام الطويل فى (ولا أيديك واحدة عندى) ثم أضاف اليـــه (ولا بالذى أوليت من قدم) فتم المعنى وأكده أحسن تأكيد) (٧١) .

ولا يعد سارقا أيضا من أخذ الفكرة ممن سبقه وأخرجها فى أسلوب جديد وقالب لم يسبق اليه ، بل ان بعض النقاد يرى أن المبدع أولى بالمعنى من المخترع يقول أبو هلال العسكرى :

(ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعانى ممن تقدمهم والصب على قوالب من سبقهم ، لكن عليهم اذا أخذوها أن يكسوها ألفاظا من عندهم ويبرزوها فى معارض من تأليفهم ، ويوردوها فى غير حليتها ويزيدوها فى حسن تأليفها ، وجودة تركيبها وكمـــال حليتها ومعرضها ، فاذا فعلوا ذلك فهم أحق بها ممن سبق اليها) (٧٢).

غير أنه لا ينبغى أن يغفل . جهد المبتكرين والمخترعين ، ولا ينكر عملهم ، فلهم فضل السبق والابتكار للمعانى ، ولمن تفنن فى الافصـــاح عنها فضل حسن العرض وجمال السبك وجودة التصوير .

---

(٦٩) ديوان النابغة ص ١١٩ .
(٧٠) ردت الفرس الأرض : رجمتها بحوافرها فى سيرها .
(٧١) الوساطة ص ١٨٩ .
(٧٢) الصناعتين ص ١٨٦ .

ويرى الجرجانى أن السرقة نوعان أحدهما : ظاهر جلى ، وهو نقل المعنى والكثير من الألفاظ ، وذلك مثل قول محمد بن وهب :

هل الدهر الا غمرة وانجـــلاؤها وشـــيكا والا ضيقـة تتفـــرج

وقول البحترى :

هل الدهر الا غمرة ثم ينجلى عماها والا ضيقة وانفراجها (٧٣)

فالمعنى فى البيتين واحد ، وهو أن الدهر يومان عسر ويسر ، أو ضيق وفرج ، ولا شك أن البحترى نقل المعنى برمته من سابقه وكثيرا من ألفاظه كما هو واضح .

وثانيهما : خفى دقيق يحتاج الى نظر ثاقب وفكر عميق ، ويتأتى ذلك فى المعانى والأغراض ، أما المعانى فيقول الجرجانى فى شأنها : (وأول ما يلزمك فى هذا الباب ، ألا تقصر السرقة على ما ظهر ودعا الى نفسه ، دون ما كمن ونضح عن صاحبه ، وألا يكون همك فى تتبع الأبيات المتشابهة والمعانى المتناسخة طلب الألفاظ والظواهر دون الأغـــراض والمقاصد) (٧٤) .. يقول لبيد :

وما المال والأهلون الا ودائع ولابد يوما أن ترد الـــودائع

ويقول الأفوه الأودى :

انمـــا نعمـــة قو م متعـة وحيـــاة المرء ثوب مســـتعار

فالمعنى فى البيتين واحد (ايداع شىء ثم رده الى صاحبه يوما ما) وان كان لبيد ذكر المال والأهل وجعلها ودائع ، والأودى ذكر الحياة وجعلها ثوبا مستعارا .

---

(٧٣) الوساطة ص ١٩٨ .
(٧٤) المرجع السابق ص ٢٠١ .

أما الأغراض : فهى أ ن يكون البيت فى النسيب مثلا فينقله الشاعر الآخر الى المديح وهذا يدل على تفننه فى السرقة واخفاء ما فعل ، فلا يتنبه له الغبى الغافل ، أما الفطن الذكى فيعرف الصلة التى تجمع بين البيتين ، والآصرة التى تربطهما . يقول الجرجانى : (وحتى لا يغرك من البيتين المتشابهين أن يكون أحدهما نسيبا والآخر مديحا ، أو أن يكون هذا هجاء وذاك افتخارا ، فان الشاعر الحاذق اذا علق المعنى المختلس ، عدل به عن نوعه وصنفه ، وعن وزنه ونظمه ، وعن رويه وقافيته ، فاذا مر بالغبى وجدهما أجنبيين متباعدين ، واذا تأملهما الفطن الذكى عرف قرابة ما بينهما والصلة التى تجمعهما . قال كثير (٧٥) :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لى ليلى بكل سبيل

وقال أبو نواس (٧٦) :

ملك تصور فى القلوب مثاله فكأنما لم يخل منه مكان

فلم يشك عالم فى أن أحدهما من الآخر ، وان كان الأول نسيبا والثانى مديحا (٧٧) ، وخلاصة ما انتهى اليه النقاد من مقاييس فى مجال السرقات الأدبية ما يلى :

(١) أن السرقة لا تكون فى المعانى العامة ، ولا فيما كانت خاصة ثم شاعت حتى أصبحت فى حكم العامة (٧٨) .

(٢) أن السرقة تكون فى المعانى الخاصة التى ارتبطت بمقام معين أو تجربة ذاتية خاصة (٧٩) .

---

(٧٥) الأمالى ج ٣ ص ١١٩
(٧٦) ديوان ابى نواس ج ٢ ص ٤٦٩ .
(٧٧) الوساطة ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
(٧٨) المرجع السابق ص ١٨٥ .
(٧٩) المثل السائر ص ٣١١ .

(٣) ان من أخذ معنى من غيره فعرضه فى ثوب قشيب ، أو زاد فيه بتوليد شيء جديد ، أو اختصره ان كان مطولا ، لا يعد سارقا (٨٠) .

(٤) ان من أخذ المعنى من غيره والكثير من ألفاظه دون زيادة لزمه عيب السرقة ومذمة التقصير (٨١) .

(٥) ان من أخذ غرضا لغيره فحوله الى غرض آخر عد متفننا فى سرقته ولا عيب (٨٢) عليه .

هذه هى الأسس والمقاييس العامة التى انتهى اليها الجرجانى وغيره من النقاد ، فى مبحث السرقات الأدبية ، وهى أسس سليمة ، وجديرة بالاحتكام اليها والاعتماد عليها فى الحكم على الشعراء بالسرقة أو عدمها .

أما فى المجال التطبيقى فنجد الجرجانى يقصر تقصيرا واضحا ، فلم يقف عند النصوص الشعرية مبينا ما فيها من أخذ وسرقة الا فى القليل النادر ، أما الكثير الغالب فنجده يذكر أبياتا كثيرة للمتنبى اتهم فيها بالسرقة ويسلم بهذه التهمة ولم يدافع عنه ولم ينصفه من ذلك قوله (٨٣) :

غير اختيار رضيت برك بى والجوع يرضى الأسود بالجيف

يرى الجرجانى أنه مأخوذ من قول عبد الله بن محمد المهلبى (٨٤) :

ما كنت الا كلحم ميت دعا الى أكله اضطرار

والبيتان يدوران حول معنى واحد هو أن الضرورة تضطر المرء الى ما لا تسيغه نفسه فى السعة ولكن المتنبى تناول الفكرة فصاغ منها حكمة تقبلها النفوس وتطمئن اليها القلوب (والجوع يرضى الأسود بالجيف)

---

(٨٠) المرجع السابق ص ٣١٢ والوساطة ص ٢٠٦ .
(٨١) المثل السائر ص ٣١٢ والوساطة ص ٣٨ .
(٨٢) الوساطة ص ٢٠٤ .
(٨٣) ديوان المتنبى ج ٢ ص ٢٨١ .
(٨٤) التبيان ج ٢ ص ٢٨١ .

وقد خلا بيت المهلبى من ذلك ، ثم ان المتنبى يشعرك ضمنا أنه قبل مستعليا على المحسن اليه ، وأنه برغم محنته لن يخضع ولن يذل ، لأنه أسد ، والأسد لا ينسى طبيعته من الكبر والخيلاء . مهما اشتدت به الخطوب ، أو أصابته الكروب ، ثم ان كلمة الجيف لدى المتنبى أدل على تحقير البر الذى وصل به من قول المهلبى (ميتة) لأن الجيفة ليست ميتة فقط بل ميتة فسدت بطول الزمن فغدت أقبح من الميتة الحديثة فكل ذلك يصور لنا قبح وقع تلك الصلة على نفسه وتضرره منها بدرجة أعظم وأقوى من قول المهلبى (ميتة) .

هذه الفروق الدقيقة بين البيتين خليقة بأن تنفى عن المتنبى مذمة الأخذ وتبرئه من تهمة السرقة .

ومثل قول المتنبى يرثى جدته :

بكيت عليها خيفة فى حياتها وذاق كلانا ثكل صاحبه قدما

فيرى الجرجانى أنه مستوحى من قول أشجع السلمى :

فقد كنت تبكى وهم جيرة فكيف تكون اذا ودعوا

ومن قول الآخر :

أبكى اذا غضبت حتى اذا رضيت بكيت عند الرضا خوفا من الغضب

ومن قول الآخر :

فتبكى اذا نأى شوقا اليه وتبكى اذا دنا خوف الفراق

ومن قول الآخر :

لقد كنت أبكى خيفة لفراقها فكيف اذا بان الحبيب فودعا (٨٥)

---

(٨٥) الأبيات فى الوساطة ص ٢٣٥ .

وبين الأبيات صلة وثيقة ، اذ كلها تدور حول ملازمة البكاء للانسان فى حالة القرب والبعد لسبب ما .

ولكنا مع المتنبى فى عالم آخر ، عالم ملىء بالانفعالات الصادقة والحزن العميق ، فاذا كان المتنبى يشارك السابقين فى البكاء على جدته فى حياتها خوفا عليها ، فانه فى الشطرة الثانية من بيته يفوق كل الباكين فى تصوير حقيقة الحسرة التى عصفت بقلبه ، واستبدت بعقله حين أرغم على الضرب فى الأرض مخلفا وراءه تلك الجدة التى كفلته وآوته .

وبرغم أن فراق الأهل والأحباب لسبب ما من الأمور المألوفة فى حياتنا فان المتنبى يشعرك بكلمة (ثكل) ان هذا الفراق كان صعبا على نفسه ، عنيفا على وجدانه ، فهو ليس بالفراق العادى الذى يمكن تحمله ، ولكنه الفراق الذى يترك فى النفس الألم الممض والحزن الأليم .

ثم ان قوله (وذاق كلانا ثكل صاحبه قدما) يشعرك بشىء آخر ، وهو أنه لم يتمكن من رؤيتها قبيل موتها ، ولم يتمكن من وداعها فى أخريات حياتها ، مما زاد حسرته وضاعف آلامه وأحزانه .

هذه لمحـــات دقيقة تميز بها المتنبى عن غيره من الشعراء السابقين ، فلم يستطيعوا أن يلموا بها أو يحوموا حولها .

ولو طبق الجرجانى المقاييس النقدية التى سبق أو وضحناها تطبيقا عمليا ، وأعمل ذهنه ، وأجهد فكره فى ادراك الفروق الدقيقة بين هذه الأبيات وأمثالها ، مما أورده لنفى عن صاحبه تهمة السرقة وارتفع به الى منزلة سامية بعيدة كل البعد عن مظنة العجز والقصور ، ولكنه لم يفعل الا فى القليل النادر اكتفاء بمنهجه الذى رسمه لنفسه والذى بناه على المقاصة ، وقياس الأشباه والنظائر .

اهداف دراسة السرقات الأدبية :

لدراسة السرقات الأدبية أهداف عظيمة ، وآثار جليلة تتضح فيما يلى :

١ ـ الجديد والمسروق :

اذا وقف النقاد على الجديد والمسروق لدى كل شاعر ، اهتدى المتتبعون للآداب على مدى التطور الذى أصاب الحياة فى جميع نواحيها المادية والمعنوية ، لأن كل تطور يصيب جانبا منها ينعكس أثره على الأدب الذى تهدر به السنة الأدباء فى صور جميلة رائعة ، فهم بما وهبهم الله من عقول واعية ، وأفكار ثاقبة ، يستشفون ما حولهم ويعبرون عنه أصدق تعبير .

٢ ـ ثقافة الشاعر :

ثم ان معرفة الجديد والمسروق لدى الشاعر تكشف مقدار ثقافته . ومدى تمثله للتيارات الثقافية التى شاعت فى زمنه وموقفه منها ، وقدرته على التاثر بها والتأثير فيها مما يحدد شخصيته ومكانته بين الأدباء ، ومدى نضجه الفنى مما يساعد على تقويم انتاجه وتقديره .

٣ ـ منع التسلل الى نتاج السابقين :

ودراسة السرقات الأدبية تحول بين الشعراء والتسلل فى نتاج السابقين بالسلخ أو النسخ أو المسخ اذ لو فعلوا ذلك لوقفت العقول جامدة أمام القديم الموروث تجتره فى جميع المناسبات ، دون أن تضيف اليه ما يساعدها على السير الى الأمام ، وما تثبت به وجودها ، ويمثل عصرها . ثم هى تؤذن السارق بالفضيحة والهوان ، فينصرف عنها الى التجديد والابتكار ، وبذلك تسير القافلة الى الأمام بدلا من لفها حول نفسها ، وعكوفها جامدة على آثار أسلافها .

٤ ـ الوقوف على المنابع الفكرية لدى السابقين :

وتساعد دراسة السرقات الأدبية على معرفة الينابيع الفكرية التى

يردها السارقون ، والمصابيح التى بها يهتدون ، مما يكشف النقاب عن جزء من ماضينا الأدبى الذى بعث على ألسنة السارقين . مما يرشد الى أولئك العباقرة القدامى وسر خلودهم اذ وسعت خبرتهم تجـــارب الحياة فترجموا عنها ترجمة انسانية صادقة .

كما تبين هذه النظرة مشرب الشاعر واتجاهه الأدبى حينما تتحدد شخصية الأديب الذى يقلده ويسير فى فلكه .

ولكن لا ينبغى للأدباء اللاحقين أن يذوبوا فى شخصيات السابقين، ويعملوا على نشر انتاجهم على حساب فنهم وشخصياتهم الأدبيـــة ، لأن ذلك سيؤدى بالأدب الى التحجر والجمود .

وليس معنى ذلك أنه يحرم على الأدباء الانتفاع بآثار السابقين ، بل يجب على الناشئين الاطلاع على تلك الآثار والانتفاع بها ، استجابة لقانون التطور العام . ولكن فى حدود القـــواعد والأسس التى ذكرناها ســـابقـا .

كما أن للأدباء المحدثين أن يأخذوا ممن ســـبقهم ، ما داموا سيجعلون قولهم بداية ينطلقون منها الى آفاق جديدة ترضى الفن ، وتدعم بنيانه ، وتزيده بساطة فى الشكل أو المضمون أو فيهما معا .

وقديما قالوا : (اتكال الشاعر على السرقة بلادة وعجز ، وتركه كل معنى سبق اليه جهل) (٨٦) .

وبعـــد : فهذا ما استطعت أن أجلوه من منهج القاضى الجرجانى النقدى وأقومه ، حسب قدرتى النقدية وطاقتى على فهم النصـــوص الأدبية . أرجو أن أكون قد وفقت فيما توخيت ، واهتديت الى ما قصدت. « والحمد لله أولا وآخرا فهو حسبى ونعم الوكيل » .

---

(٨٦) العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ٢٦٦ .